إنا لله وإنا إليه راجعون(*)

الأســـتاذ الجليل الشيخ علي
الطنطاوي والد الشهيدة بنان

الأستاذ رئيس تحرير (المدينة)

جاءني مندوبكم ولدي العزيز يحيى عبد الرقيب يبلّغني طلبكم مني أن أكتب للجريدة عن الحادث ..

يا أستاذ .. قد تنشب النار بثياب الإنسان .. وتلفح وجهه وتحرق أطرافه .. ثمّ ينجو منها فيتحـــدّث عنـــها ، وأنت طلبت منّي الكلام عنها ، وأنا لا أزال يلفني أوارها .. ويتطاير من حولي شرارها فدعني الآن وادعُ لي .. هـــذا ما أطلبه منك ومن كلّ أخ وصديق ..

في صفر سنة ١٣٥٠هـ (يا أستاذ) ماتت أمّي –وعمرها كان أيضاً سبعاً وثلاثين سنة– فهل تصدّق إذا قلت لك ، إنّ مرور إحدى وخمسين سنة على مصابي بها لم يمح أثر المصاب ..

ولكنّ مصابي اليوم ببنتي غطّى على مصابي بأمّي ..

لقد علمت الآن أنّ فقد البنت أشدّ من فقد الأم ، لأنّ عطف الأصل على الفرع ، أقوى من عطف الفرع علـــى الأصل ، هذي سنة الله

ولو كان للأبناء والبنات ، مثل قلوب الآباء والأمّهات ، ما بقي في الدنيا عقوق ..

ذهبت أمّي وأنا شاب .. مقبل على الحياة .. أقوى على الاحتمال .. وبنتي ذهبت وأنا شيخ .. فقد الطاقة على حمل المصاعب ، ولولا عون الله وأثر من رياضة الشباب ، لهدّني المصاب ..

(*) عن جريدة (المدينة المنورة) . وقد صدّرت الجريدة كلمة الأستاذ الجليل مدّ الله في حياته وأعظم من أجره بمقدّمة نبيلة جـــاء في آخرها : (وقد طلبت "المدينة" من العالم الأديب الباحث المحدّث الشيخ علي الطنطاوي كلمة حول هذا الحـــادث .. ورغـــم وطـــأة الظرف القاسي فقد استجاب فضيلته) .

أمي قضت أمامي ، وبين يديّ فودّعتها .. الوداع الذي لا لقاء في الدنيا بعده ، وبنتي قضت بعيدة عنّي ، فلـــم أشهد يومها ، و لم أشيّعها ، ولا وقفت على الجدث الذي ضمّ جسدها ، وإن كان قبرها في الحقيقة قلبي وقلوب أمّها وأخواتها وزوجها وأولادها ، وإن كان الذي أُودع الثرى جسداً فقد الحياة .. (لمبة) لم يعد يصل إليها تيّار الكهرباء .. قميصاً بلي فخلعناه .. أما هي (وهي الروح) فقد آبت إلى خالقها ومالكها .. ومن هو أرحم بها

أقسم أنّ هذه هي أوّل مرة (بعد الحادث) يجري قلمي بذكر الجنازة والقبر

أقسم أنّي أكتب هذا السطر ولا أكاد أتبيّن كلماته لأنّها غرقت في دموعي فزاغ عنها بصري

اللهم لا شكوى إلاّ إليك ، إنّما أشكو بثي وحزني إلى الله .. وعند الله أحتسب مصابي ، ومنـــه (مـــن فـــضله وكرمه) .. أرجو ثوابي

* * *

أمّي ذهبت بقضاء الله وقدره ، وكان السبب غلطة طبيب

وبنتي ذهبت بقضاء الله وقدره ، وكان السبب جريمة جانٍ أثيم

ولكنّ عزائي عنها أنّها مشت إن شاء الله في قافلة الشهداء ، وأنّ قاتلها غدراً وعدواناً له ربٌّ جبّار منتقم عادل

وأنّه إن كبر طاغٍ وبغى وعتا في الأرض ، وحسب أنّه القويّ القاهر ، فإنّ الله أقوى وأقدر ، وإنّ الله أكبر ..

وإنّ لنا غداً بين يديه موقفاً يذلّ فيه من عزّ اليوم بالباطل ، ويعزّ من صبر واحتسب وترك أمره لله

* * *

يا سيدي دعني الآن ، وسأكتب إن شاء الله حين يخف القرح ، ويجف الجرح ، وتدركني نعمة الله فأنسى ، وما أظنّ أنّ الذي كان يلفّه النسيان

الجرح أليمٌ أليم ، ولكنّها رحمة الله بالإنسان حين أمدّه بأسباب الإيمان

الإيمان منحة وليس الإيمان محنة ، إنّه ليس تكليفاً فالتكليف ابتلاء ومشقة ، والإيمان راحة ونعمـــة ، فـــاحفظوا إيمانكم .. كما تحفظون أسماعكم وأبصاركم ، وكرائم أموالكم ، فإنّ نعمة الإيمان أجلّ النعم

* * *

أرأيتم الذي يمشي في الطريق الموحش ، في الليل المظلم ، في المكان الممتلئ بالوحوش ، والهوام والحفر ، ومعه شمعة ، كيف يحافظ عليها ، أن تطفئها الرياح .. كذلك الأمر في شمعة الإيمان ، وســط ريــاح الــشهوات والــشبهات والمغريات والمغويات ، والمصائب والآفات

ما كنت والله لأحتمل لولا إيماني بأنّ هذا الفراق الموقوت بعده (إن شاء الله) التلاقي الدائم

إن كان قد عزّ في الدنيا اللقاء ففي مواقف الحشــر نلقاكم ويكفينــا

وإنّ هذه الحياة الدنيا –مهما طالت– طريق وممرّ ، وإنّ الحياة الآخرة هي المنــزل والمقرّ

وإنّ من مات بسلاح الغدر والبغي (وهو مؤمن) له ثواب الشهداء

لولا هذا لزلزلت الصدمة أركاني ، كما زلزلت أركان أمّها

ولكنّ هذا كلّه إنّما يعيه عقلي الواعي ، فيمسك قلبي أن يسيل من الآماق دموعا ، أو تجف الدموع في العيون ، فتأكل الحرقة الأكباد ، وما أشدّها على المصاب أن تحرم عينه البكاء

نزف البكاء دموع عينك فاســتعر عينــاً لغيــرك دمعهــــا مدرار
منذا يعيــرك عينــه تبكــي بهــا أرأيت عينــاً للدمــوع تعــــار

حتى إذا جئت لأنام ، وغفل العقل الواعي ، أفلتت من القلب الأحزان فلم أطق المنام

نهــاري نهــار الناس حتى إذا دجا لي الليــل هزّتني إليك المضاجــع

فكيف تريد (يا أستاذ) أن أكتب للجريدة ، وأن أصوّر للناس آلامي ؟ وأدخلهم معي في أعماق نفسي وأحدثهم عن بنتي الراحلة حديث ذكرياتي ؟

إنّها سبع وثلاثون سنة (يا سيدي) عاشتها ، كلّ دقيقة تحمل ذكرى ، وكلّ ذكرى هي قطعة مني ، جــزء مــن حياتي ، شعبة من كبدي ، فهل أمزّق كبدي شعباً لتكون مقالة للقرّاء ، ثم يجعلها ناس منــهم ، تــسلية الــسامر ، وحديث المجالس ، ثمّ تلفّ بها (المقاضي) عند البياع

نعم .. كذلك تهون مصائب ناس عند ناس آخرين

إنّ ذكرياتي هي ملكي وحدي ، فدعوها لي

لم يبق لي من بنتي غيرها ، ووالله لولا الإيمان لقتلني الأسى ، إذ لم يبق لي من بنتي –من قطعة كبدي– إلاّ لفافــة من أوراق الجرائد ، وذكريات تتربّص بها آفة النسيان

ولولا الإيمان ، لهززت قلمي الذي أذبلته الشيخوخة ، ولملأته بمداد أطياف الشباب ، ولكتبت به صفحات تبكي بلا آماق ، فتسيل الدموع من عيون ما عرفت من قبل سفح الدموع ، وتستلّ الحزن من قلوب قدّت مــن جلمــد الصخر ، وتفجّر ينابيع الأسى في كلّ فؤاد ، حتى تحيي فيه ميت الشجن ، فيذكر في مصابي مصابه ، فيقاسمني الحزن ، ويعينني على البكاء

وإنّ هذا القلم الذي جرى على القرطاس أكثر من نصف قرن ، وبلغ المطبوع من آثاره أكثر من عــشرة آلاف صفحة ليقدر (بعون الله) على هذا ، ولكنّي لست في مقام الأديب الذي يتفرّغ لصوغ عقود البيان ، ونظم الكَلِــمِ العبقريّ سلاسلَ تكون زينة لمجالس الأدب ، بل أنا في مقام الأب المفجوع الذي انحصرت أمانيه مــن دنيــاه غــداة الحادث ، في ركن منــزوٍ هادئ يأوي إليه وحده ، ينفرد فيه بنفسه ، يعتصر قلبه دموعاً يطفئ بهــا (أو يحــاول أن يطفئ) نار الحزن فيه ، حتى إذا جفّ الدمع ، أو شبع من البكاء ، عمد إلى ما هو خير لها وما هو خير له : إلى سؤال الله لها منازل الشهداء ، ولأمّها ولزوجها وأولادها وأخواتها جميل الصبر ، وله مثل ذلك مع حــسن الخاتمــة .. ولا أطمع بالشهادة وإن كنت أتمناها لأنّني أقلّ من أن استحقها ، وأستحي من الله (بعملي القليل) أن أطلبها

هذا الذي يبقى ، على حين يفنى الشعر والنثر والأدب والبيان وكلّ ما زخرف الإنسان في دنيا الفناء

والشكر خالص الشكر لكلّ من تفضّل فواسانا في مصابنا ، وبكى معنا وقاسمنا أحزاننا .. وإنّا (جميعاً) لله (إنّــا ملكه) وإنّا إليه راجعون